الفصل السادس

أهمية التربية
في حياة المجتمع

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

أهمية التربية في حياة المجتمع

ماهية التربية :

منذ وجدت المجتمعات البشرية على وجه الأرض، وهي تتخذ من التربية وسيلة لتنشئة أفرادها ، وللعمل على تكيفهم مع البيئات المحيطة بهم، والتربية بهذا المعنى قرينة للحياة ذاتها.

فالأسرة تتولى العناية بصغارها كي يتوافقوا مع المجتمع الصغير المحيط بهم في نطاقها ، ومع المجتمع الخارجي ، كي يستطيعوا التعامل معه، والعيش في خضم حياته، ولأن التربية تحتل موقعًا خطيراً في حياة المجتمع فإنها لم تترك للأسرة .. فقط، كما أنها لم تترك للأفراد، وإنما تدخلت فيها الجماعة أو المجتمع، وألقت وراءها بثقلها.

إن ما يميز أفراد مجتمع ما عن أفراد مجتمع آخر هو ثقافة ذلك المجتمع ونوع التربية فيه، وللمحافظة على بقاء الجماعة واستمرار وجودها فإن المجتمعات تحرص على أن تلقن الصغار من أفرادها أساسيات ثقافتها، ومبادئ تربيتها، حتى يخرجوا إلى الحياة وهم متماسكون اجتماعيًا وثقافيًا وفكريًا ، بحيث لا تسهل إذابتهم في مجتمعات أخرى ، وبحيث يقاومون ما قد يتعرضون له من ضغوط تقع عليهم ، سواء كانت من جانب الطبيعة وعواملها، أو من جانب المجتمعات المحيطة بهم، والتي قد تطمع فيما عندهم من خيرات أو ثروات، أو من جانب وسائل الإعلام الحديثة الموجهة إليهم وإلى مجتمعاتهم.

التربية عملية مرادفة للحياة:

والتربية ، بناءً على هذا الأساس ، عملية مستمرة مرادفة للحياة ذاتها، فهي تبدأ مع الإنسان منذ ولادته، بل وحتى قبل ذلك الميلاد ، وهذه تستمر معه طيلة سنى عمره ، ولا تنتهي إلا بانتهائها.

ولعل هذا المعنى هو الذي كان ـ ولا يزال ـ وراء عناية الإسلام واهتمامه بالطفولة وتنشئتها ، حتى قبل الزواج، عملاً بحديث رسول الله ﷺ :« تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ». ولقد حرص الإسلام على العناية بالأطفال منذ ميلادهم ـ كما يقول « حسن عبدالعال » : « بل لقد شملت عنايته مرحلة ما قبل الميلاد ، حين دعا إلى اختيار الزوجة الصالحة ، لتكون أما صالحة ، توفر المناخ الطيب ، والبيئة الملائمة لتربية الطفل، وأيضًا برعايته والعناية بصحته الجسمية والنفسية».[1]

التربية والتطبيع الاجتماعي :

وعلى ذلك فإن التربية عبارة عن عملية تشكيل لشخصية الفرد ، ولبناء حياته داخل الإطار الذي ارتضته الجماعة لنفسها، والذي وضعت معاييره وحددت ضوابطه، وهذه العملية « تبدأ مع الإنسان طفلاً يتشرب القيم والاتجاهات والتصورات من والديه، ثم ينمو الطفل، ويحتك بالأقارب والجيران، فتزيد دائرة احتكاكاته، ثم يذهب إلى المدرسة، إن كان هناك تعليم مدرسي، فتتسع الدائرة أكثر ، كما يقول بذلك « عبود » .[2]

ويقول « سويفت Swift » إن التربية هي الطريقة التي يتمكن الفرد بواسطتها أن يكتسب الكثير من القدرات البدنية والأخلاقية والاجتماعية ، تلك القدرات التي تتطلبها الجماعة التي ولد بها، والتي يرغب أن يعمل فيها . ويسمى علماء الاجتماع هذه العملية بالتطبيع الاجتماعي ، أو التنشئة الاجتماعية Socialization، وترجع أهمية هذا المصطلح إلى سببين ، فهو يؤكد في المقام الأول على أن التربية عملية اجتماعية ، تحدث في إطار اجتماعي، كما أنها تتم بالطرق والأساليب التي تتطلبها قوانين الجماعة.[3]

---

(١) حسن عبدالعال : «التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٢) عبدالغني عبود : « الأيديولوجية والتربية : مدخل لدراسة التربية المقارنة»، دار الفكر العربي، القاهرة ، ط٢، ١٩٧٨م، ص ص ٢٦-٢٧.

(٣) د. ف. سويفت : « اجتماعيات التربية: دراسة تمهيدية تحليلية» ، ترجمة محمد سمير حسانين، مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا ، ط٢، ١٩٧٧م، ص ١٦.

ومعروف أننا لا نستطيع ـ كما يقول « جونسون Johnson » : أن نتحدث عن شخصية الطفل الوليد » ، وذلك ببساطة لأن هذا الرضيع لا يمتلك هذه الشخصية بالمعنى الصحيح . إن الشخصية عبارة عن نظام داخلي معقد A Complex Inner System يمثل العالم الخارجي ، بعد أن تحتك به وتتفاعل مع عوامله.[٤] ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ : « يولد الطفل على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ».

وهذا الكلام يقودنا إلى عملية التطبيع الاجتماعي التي حدثنا عنها «سويفت » والتي هي من أخطر المهام التي تقوم بها الجماعة تجاه أفرادها الجدد من الناشئين حتى يستطيعوا أن يتكيفوا مع الجماعة المحيطة بهم، وأن يتوافقوا مع ما أصطلح عليه أفراد المجتمع، وبالتالي فإن هذه العملية ـ عملية التطبيع الاجتماعي ـ عملية تربوية بالدرجة الأولى ، يتمكن الفرد أو الناشئ الجديد، من خلالها ، من القيام بالأدوار الاجتماعية الجديدة عليه المطلوبة منه للعيش والتوافق داخل مجتمعه.

هذا ويركز علماء الاجتماع كثيراً جداً ـ في عملية التطبيع الاجتماعي هذه، على دور الأسرة ، وهم بطبيعة الحال لا يغفلون دور المجتمع الخارجي، ولكنهم يقولون بأن الاحتكاك الأول للطفل، بأفراد أسرته، وخاصة والدته ، يصنع البنود الأولى لتطبيع المولود وتكيفه مع مجتمعه.

جماعات الرفاق :

وإذا كانت الأسرة تلعب الدور الأول والأساس في عملية التطبيع الاجتماعي ـ التي هي عملية تربوية بالدرجة الأولى ـ في المراحل الأولى من حياة الطفل، إلا أنها تبدأ في فقدان مساحة التأثير عليه في كل يوم يشب فيه عن الطوق ويبدأ في الاحتكاك بالعالم الخارجي، حيث تشاركها ذلك التأثير جماعات

(٤) Robet T. Bell (Ed). Harry M. Johnson : Socialization (in the Sociology of Education), Temple University. The Dorsey Press, Inc., IL, 1962, Pl. 85.

أخرى من المجتمع، ، من أهمها وأخطرها جماعات الأنداد أو النظراء (الرفاق The Peer Groups) والتي يتضح تأثيرها على أفرادها بشكل كبير ، خاصة في مرحلة المراهقة ، حتى إن بعض الدراسات في هذا المجال قد أثبتت أن تأثير أفراد هذه الجماعات على بعضهم البعض يكون في بعض الأحيان ـ أقوى كثيراً من تأثير الأسرة ذاتها على أبنائها.

ويوضح لنا المعنى السابق أحد علماء الاجتماع الأمريكيين قائلا : « إنه إذا كانت جماعة الأتراب واضحة بعض الشيئ في مرحلة الطفولة، إلا أنها تصبح مظهراً سائداً ومسيطراً على الحياة الاجتماعية للمراهقين ».(٥)

ويفسر البعض هذا الصراع الذي يأخذ مجراه ، بين المراهق وأسرته، خاصة في المجتمعات الحديثة المتقدمة ، على أساس أن المراهقين يقضون مع بعضهم أوقاتًا أطول بكثير مما يقضون مع أسرهم ، كما أن تماثلهم أو تقاربهم في السن يجعل تفكيرهم متقاربًا، وبالتالي فحينما يوجد اختلاف حاد بين القيم التي تتمسك بها الأسرة وتلك التي تسود « جماعات الأتراب »، نجد أن أفراد هذه الجماعات من المراهقين يفكرون ويسلكون في إطار قيم هذه الجماعات، والتي قد تكون ـ أحيانًا ـ معادية ومتصادمة مع ما تعتقده الأسرة .(٦)

العمل على تكييف الفرد :

وعلى ذلك فإذا نظرنا إلى التربية لوجدنا أن إحدى أهم الوظائف التي تقوم بها بالنسبة للفرد والجماعة هي وظيفة العمل على تكييف الفرد مع نفسه، ومن ثم تكيفه مع جماعته، فهي إذاً تكيف من جانب الفرد للعيش مع الجماعة، وللتوافق مع متطلباتها ومعاييرها وعاداتها وقيمها .. بل وقيودها أحيانًا.

كما أنها عملية تكييفية من جانب الجماعة لهذا الفرد كي يستطيع أن يساير ما تضعه الجماعة من معايير ، وأن يعمل ـ مع غيره من أفراد المجتمع ـ

(٥) Ruth Schoral Covan: The American Family, Thomas Y. Growell Company N.Y. Third Edition, 1984.

(٦) Earl Raab Gertrude Joeger: Major Social Problems, Harper Ron Publishers, New York- Evanston London, 1964. PP. 330-331.

لتحقيق أهداف تلك الجماعة. والعملية بهذا الشكل، كما يقول « سرحان » : عبارة عن عملية تكيف بين الفرد وبيئته، وهذه العملية تنشأ عن اشتراك الفرد - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - في الحياة الاجتماعية الراعية للجنس البشري، وباستمرار هذه المشاركة واتصالها تتشكل عادات الفرد واتجاهاته، وقيمه الفكرية والخلقية والاجتماعية، فهي تمثل الحصيلة الكلية لاتحاد الخبرات الإنسانية التي تشكل ما يسمى بالشخصية . [٧]

هذا ، ويعرف أحد الباحثين التربية على أنها تلك الجهود التي تتعلق بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد كيف يسلكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشأون فيه.

ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك، وتنميته وتطويره وتغييره، أي أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات والمعتقدات والاتجاهات، وأنماط السلوك المختلفة التي تجعل منهم مواطنين صالحين في مجتمعهم ، متكيفين مع الجماعة التي يعيشون بينها، أي أن التربية عملية تعليم وتعلم لأنماط متوقعة من السلوك الإنساني . [٨]

هذا ، ويركز بعض المفكرين التربويين على أن مهمة التربية هي أنها تهتم - بالدرجة الأولى - بتنمية الشخصية داخل الإطار الاجتماعي الذي توجد فيه هذه الشخصية وتتفاعل، والمفهوم الذي يأخذون به فيما يتعلق بالشخصية هو أنها «كل منظم شامل يتضمن الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية، كما يتضمن الخُلق والمزاج اللذين يعتبران أجزاء من شخصية الفرد ». [٩]

---

(٧) منير المرسي سرحان : مرجع سابق ، ص ١٩.

(٨) محمد لبيب النجيحي : الأسس الاجتماعية للتربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٧، ١٩٧٨م، ص ٩.

(٩) أ. ك. أتاواي : التربية والمجتمع، ترجمة وهيب ابراهيم سمعان وآخرين ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م، ص ٥.

التربية وتنمية قوى الإنسان :

وفي بعض كتابات « هتشنزHutchins » نجده يركز على أن التربية تهدف ـ ضمن ما تهدف ـ إلى تنمية قوى الإنسان العقلية Intellectual، والأخلاقية Moral ، وكذا القوى الروحية Spiritual Powers، وبما أن جهة واحدة من المجتمع، أو مؤسسة واحدة ـ كالمدرسة مثلاً ـ لا تستطيع أن تنمي كل تلك القوى ، فإن العديد من المؤسسات مثل المدرسة والمنزل والمؤسسات الدينية ، يجب أن تعمل جميعًا .. معا في تناسق Harmony وتعاون ، كي تحقق هذه الجوانب في الإنسان، وكي تعمل على تنميتها.[١٠]

التربية ونقل التراث الثقافي :

كذلك يربط البعض بين التربية والمجتمع الذي تعمل فيه ، وكذا بين التربية وبين ثقافة المجتمع التي تميز أفراد ذلك المجتمع عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى ، وذلك كما يقول « أبو الفتوح رضوان وزملاؤه » : فالتربية هي العملية التي يتم بها نقل التراث الثقافي وتحسينه على مر الأجيال، وهي عملية تقديم ثقافة المجتمع لأفراده الصغار وتشكيلهم على نحو يجعلهم قادرين على أن يكونوا حملة هذه الثقافة ، وبدون هذا التقديم وذلك النقل تضمحل الثقافة وينحط المجتمع، وعلى هذا الأساس فإنه كما أن التربية ضرورية للمجتمع فهي ضرورية للفرد نفسه، إذ أن تشرب الفرد لثقافة المجتمع يكسبه الصفة الاجتماعية المطلوبة للعيش في المجتمع الذي ينتمي إليه، وعلى ذلك فالتربية ضرورة اجتماعية وضرورة فردية بنفس المقدار.[١١]

---

(١٠) Robert M. Hutchins: The Basis of Education (Readings in the Socio - Cultural Foundations of Education, Omni Press, Inc., Florida, 1975, P.142.

(١١) أبو الفتوح رضوان وآخرون : المدرس في المدرسة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٥.

التربية والدعوة إلى العالمية :

وإن كانت هناك بعض الكتابات الحديثة في التربية قد بدأت تنادي بتوسيع دائرة اهتمام التربويين لتخرج بهم عن نطاق مجتمعاتهم ، كي يهتموا في بحوثهم وكتاباتهم بالأبعاد العالمية ، خاصة ونحن نعيش في مجتمع «لحظي الاتصال» ، سريع المواصلات ، بحيث أن هذا العالم قد أصبح مثل قرية صغيرة، قرية يعرف أفرادها كل ما يقع في أي ركن من أركان المعمورة، وذلك كما نادى «جارسيا Garcia» خلال الثمانينات .(١٢)

ولكن ..

ينبغي علينا نحن في مجتمعاتنا الإسلامية أن نكون واعين لأبعاد هذه الدعوة «العالمية » في التربية الثقافية، فهي إن صلحت ـ في الوقت الحاضر، الذي نحن فيه ضعاف متفرقون ـ لغيرنا من الدول القوية التي تعمل على فرض ثقافاتها واتجاهاتها، وأنماط تربيتها على كثير من شعوب العالم، إلا أنها لا تصلح لنا بالقطع ، وذلك حتى لا نذوب في ثقافات هذه المجتمعات ، خاصة أبناؤنا وبناتنا الذين يتعرضون لهذا النوع من الغزو الثقافي والفكري الذي يأتيهم عبر قنوات الاتصال المختلفة وهم على أرضنا وبين ظهرانينا، بينما يتعرض لهذا الغزو ـ بشدة ـ أبناؤنا الذين يذهبون للدراسة بالخارج، أو الذين يسافرون للسياحة كل عام.

وعلى سبيل المثال فإن مجتمعات الغرب المتقدم تعمل الآن على زيادة رفاهية مواطنيها، وإيجاد فرص الاستمتاع بالحياة والترف الزائد، كما تعمل على زيادة حصيلة أفرادها من استثمار أوقات الفراغ، ومن كثرة الاستهلاك، بل إنها تعمل على إيجاد الرغبات الحادة في ذلك عن طريق الدعاية والإعلام.(١٣)

---

(١٢) Ricardo L. Garcia: Education For Cultural Pluralism: Global Roots Stew, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, P.7.

(١٣) Thomes E. Curtis: Aethentic Education : The Quality of Life, Phi Delta Kappa Eductional Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, P.10.

بينما مجتمعاتنا التي تئن تحت وطأة مشكلات الحاجة إلى الأمن الثقافي والسياس والعسكري والغذائي .. وربما كل أنواع الأمن المعروفة (!!) في هذه المجتمعات ينبغي أن تكون أهداف تربيتها موجهة توجيهًا صارمًا ناحية العمل وإتقانه، وبذل الجهد والعرق ، بغية الإنتاج.. دون توقف ، حتى نستطيع أن نضع أقدامنا على طريق تعويض المسافات الهائلة التي تفصل بين مجتمعاتنا النامية وتلك المجتمعات المتقدمة ، والتي تزداد تقدمًا كل يوم .. بل كل ساعة..!!

أولويات تربوية :

ولعلنا نتعظ من هذا المثل الطيب الذي يتمثله الأمريكيون جيداً في قول حكيم من جكمائهم هو « جون آدمز John Adams» : « ينبغي عليّ أن أدرس السياسة والحرب ، حتى يكون لأبنائي الحرية في دراسة الرياضيات والفلسفة والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والعمارة البحرية والملاحة والتجارة والزراعة، وذلك كي يمتلك أبناؤهم الحق في دراسة الرسم والشعر والموسيقى والهندسة المعمارية » .[١٤]

ولعل الأولويات هنا واضحة في أذهاننا.. كما رتبها ذلك الحصيف الأمريكي لقومه، فعلوم القوة والمنعة والعزة.. تأتي أولاً، ثم العلوم التي تتطلبها المعيشة الجادة على ظهر الأرض، ومن بعد ذلك تأتي علوم الترف والجمال ، والاستمتاع بأوقات الفراغ واللهو..!!

شمولية التربية :

هذا ، وحينما نتحدث عن التربية ينبغي أن يكون واضحًا أننا لا نقصد بها ذلك المعنى الضيق المحدود الذي يفهمها البعض على أساسه، باعتبار أن أمور التربية تتعلق فقط بالمدرسة أو الجامعة، وبالدرس والمدرس، وبالفصل والسبورة وبالكتاب والمنهج والمقرر.. !!

---

(١٤) Ibid., P.8.

وإنما نحن نتحدث عنها بمعناها الواسع الشامل، ذلك المعنى الذي يجعل مؤسسات المجتمع كله ـ بلا استثناء ـ مؤسسات تربوية تسهم، أو ينبغي أن تسهم، في تربية المواطن، وفي توسيع دوائر خبراته ومداركه ومعارفه، كما تسهم في شحذ عزيمته وإثارة وجدانه، كما أنها تسهم في إثارة وعيه بأحوال مجتمعه وظروفه الداخلية، بل والخارجية، ومن ثم بالمشكلات التي تعترض حياته، وبالتالي بأساليب حلول تلك المشكلات.

إن هذه المؤسسات في مجتمعنا تشمل الأسرة والمسجد والمكتبة ، وتمر على النادي الأدبي والرياضي، وكذا أجهزة الإعلام ووسائله المختلفة والمتنوعة، ومنها إلى المؤسسات الثقافية والصناعية والتجارية والزراعية، إلى تلك التي تهتم بالخدمات في المجتمع، وقد عبر عن ذلك واحد من التربويين المعاصرين في الولايات المتحدة الأمريكية هو « كيلي » حين نادى بأن التربية لا ينبغي أن تتوقف حدودها عند أسوار المدارس أو الجامعات ، لأنها بذلك تصبح قاصرة ومحدودة إنها ينبغي أن تمتد لتشمل قطاعات عريضة باتساع المجتمع كله، فهي في المؤسسات الثقافية، وفي دور رعاية البشر ، كما أنها ينبغي أن تكون في مؤسسات المال والأعمال، وكذا في المؤسسات الصناعية، كذلك لا يمكننا أن نغفل وجودها في أعمال الجهات التي تهتم بالترويح عن النفس والتسلية.. وذلك قليل من كثير».[١٥]

ويحدثنا كاتب تربوي آخر هو « كيندر Kinder» عن هذا التنوع والانتشار للمؤسسات كلها، بحيث لا يتعارض عمل إحداها مع عمل الأخرى، يقول : « إن المدرسة تؤدي دوراً عظيما في تربية النشء ، ولكنه ليس كل شيئ. إن عمل هذه المدرسة ينبغي أن يكو جزءاً يتكامل مع باقي أعمال المؤسسات الأخرى التي تخدم المجتمع، دون أي تعارض أو تناقض».[١٦]

---

(١٥) Eugene W. Kelly Jr: Beyond Schoolling: Education in a Brooder Context, Phi Dalta Kappa, Bloomington, Indiana, 1982, P.6.

(١٦) J.A. Kinder: Schol Public Relations : Commuenicating to the Community, Phi Delta Kappa, Bloomington, Indiana, 1982, P.8.

ويوسع « حسن عبدالعال » مفهوم التربية إلى عدة مجالات حين يقول نقلاً عن « منير المرسي سرحان » إن التربية تمثل الحصيلة الكلية لإنماء الخبرات البشرية التي تشكل ما يسمى بالشخصية، وهي بالإضافة إلى ذلك وسيلة فعالة يحدث من خلالها التغير في السلوك إلى جانب شدة تأثيرها في التفكير والإرادة والوجدان ».[١٧]

ويؤكد « مطاوع» على العلاقة الوثيقة بين الثلاثية التي لا تنفصل عن بعضها، ونعني بها « المجتمع.. والتربية.. والثقافة » فيقول : « إن التربية توجد في مجتمع معين له ثقافته وفلسفته التي توجه حياته. وهذه الحياة تحكمها مجموعة من القواعد والمعايير، تعتبر جزءاً من ثقافة هذا المجتمع، والتي تقوم بوظيفة تنظيم السلوك البشري، وتحوله أعمالاً هادفة ولازمة، بل وضرورية للنظام الاجتماعي الذي يعيش الإنسان في كنفه وفي ظله، ودور التربية المنشود لا يتحقق إلا حين تزود الأفراد، تبعًا لأعمارهم وقدراتهم ومستويات نضجهم ، بالمواقف التي تنمي الجوانب العقلية الابتكارية التي تمكنهم من اكتشاف آفاق جديدة تنهض بواقعهم ، إذ أنه من طبيعة الإنسان العمل والتجريب، ليخرج بأفكار ومفاهيم وافتراضات جديدة تفيد مجتمعه الذي يعيش فيه.[١٨]

التربية .. والمجتمع والثقافة :

ويوسع الكاتب السابق فكرته عن العلاقة بين التربية والمجتمع فيقول : «وقد توصل الإنسان فكريا إلى افتراضات أساسية لضبط السير العام في المجتمع ، وذلك من خلال تجاربه ومواقفه الحياتية، تتخلص فيما يلي :

- طبيعة العالم الذي عاش فيه ، كيف وجد ؟، وكيف أوجد ؟ وهذه من الافتراضات الأساسية لضمان حصوله على الغذاء والمأوى والأمن اللازم لبقائه العضوي.

---

(١٧) حسن ابراهيم عبدالعال : أثر التربية الإسلامية في الحد من الجريمة، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد الرابع عشر، السنة الخامسة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٥.

(١٨) إبراهيم عصمت مطاوع : أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ص٨.

- مكانه في هذا العالم ، وعلاقته بالقوة أو بالقوى التي تتحكم فيه، وفي هذا العالم الذي يعيش فيه، ويتغذى منه، ويحتمي فيه.

- علاقته كفرد بزملائه ممن يعيشون معه، ومن يتعامل معهم ، وكذا الحياة الاجتماعية التي يحيونها ، وما في هذا من واجبات عليه، وحقوق له.

- الطبيعة البشرية، صورة النفس، وماذا يدفع الفرد إلى هذا السلوك أو ذاك ، وماذا يدفعه إلى عمل ما .. ؟

وقد أدت هذه الافتراضات الأربعة إلى تكوين إطار من المعتقدات عن الطبيعة، وعن الإنسان في ضوء ما استطاع أن يضفيه هذا الإنسان من معانٍ على الأحداث ، وعلى سلوك غيره، ومن ثم بدأ الإنسان الفرد يشكل ويفسر نفسه وسلوكه، لا لغيره فقط، ولكن لنفسه أيضًا. (١٩)

ويصل الكاتب إلى الخلاصة من كل ذلك فهذه الجوانب هي التي تشكل فكر وثقافة وفلسفة المجتمع، واللغة التي تترجم هذا وتحيله إلى واقع هي التربية، ولا شيئ غيرها ، والفكر التربوي في أي مجتمع يتشكل طبقا لهذه الافتراضات، وهي بالتالي تعكس ما وصل إليه المجتمع من حضارة ورقي، فكلما تقدمت الحضارة تعقدت الحياة وتعقدت معها شؤون التربية، وأصبح لتنظيمها أهمية اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية.(٢٠)

وعند « النحلاوي » نجد أن التربية عملية من أصعب العمليات الاجتماعية، لأنها تتم بين طرفين نقيضين تمامًا، هما الطفل الذي يولد وهو في غاية الضعف، والمجتمع الذي يملك قدرات هائلة في استثمار ما لدى هذا المولود الضعيف من إمكانات كامنة أودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه، يقول : « إن تربية الطفل البشري أصعب أنواع التربية على الإطلاق. إنها أشبه ما تكون بمعادلة صعبة، ذات طرفين بينهما من التباين والتباعد مثل ما بين السماء

(١٩) المرجع السابق، ص ص ٨-٩.

(٢٠) المرجع السابق، .

والأرض(!!) في أحد طرفيها طفل ولد ضعيفًا عاجزاً غير مزود بشيئ من السلوك الغريزي، إلا البكاء، والحركة العشوائية، وامتصاص الثدي، ولكنه مجهز بأجهزة ووسائل مدهشة، يمكنه إذا أحسن تمرينها وإعدادها، أن يتزود مع مرور الزمن وعلى المدى البعيد، بكل ما يحتاج من الخبرات والقدرات ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. (النحل/٧٨).

وفي الطرف الآخر من هذه المعادلة التربوية الصعبة نجد البيئة بأوسع معانيها، وعلى الناشئ أن يتطبع بكل مؤثراتها، بعواملها وتضاريسها الطبيعية، وما تطرحه من مشكلات ومصاعب في وجه الحياة، كما أن عليه أن يتطبع ، وهذا أهم وأصعب، بالبيئة الإنسانية ، أي بالمجتمع البشري بأهدافه ومثله العليا ولغته وتصوراته وتفكيره وعاداته، وكلما تقدمت الحضارة اتسعت الشقة بين قدرة الناشئين الفطريين وبين معايير الكبار وعاداتهم في الحياة.[٢١]

أما « قمبر » وزملاؤه فيربطون مباشرة بين الثلاثية التي سبق الحديث عنها، ونقصد بها ثلاثية (المجتمع ـ التربية ـ الثقافة) حيث أن التربية عندهم « مؤسسة اجتماعية تضطلع بمسؤولية إعادة إنتاج ثقافة المجتمع وعلاقاته الاجتماعية، أو بعبارة أخرى نقل التراث الثقافي والاجتماعي، والمحافظة على بقائه واستمراره، وذلك بمعنى إكساب الأطفال والشباب معارف وقيم وعادات مجتمع الكبار، بما يؤهلهم لعضوية ذلك المجتمع.[٢٢]

على ذلك فالتربية عند المؤلفين السابقين عبارة عن «رباط اجتماعي» لنقل « ثقافة المجتع » من جيل إلى جيل، وقد وسعوا مفهوم التربية كما ينبغي أن تكون فهي :

* « فن متعلم » من حيث أنها « نشاط ينطوي على عملية تعليم وتعلم،

---

(٢١) عبدالرحمن النحلاوي : التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة الرياض، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، صص ٥-٦.

(٢٢) محمود قمبر وآخران : مرجع سابق، ص ص ١٣-١٤.

يقود فيها المعلم تلاميذه ، ويتطلب بالطبع قدراً كبيراً من تكنولوجيا التعليم، فالتعليم والتعلم عملية تتصل بوسائل وأساليب وطرائق، كما تتصل بقدرات ومهارات تمكن المعلم والمتعلم من استخدام هذه الوسائل والأساليب والطرائق بمهارة ودقة.

* والتربية « مؤسسة اجتماعية » ، فهي المؤسسة الأولى للإنسان لنقل ثقافته وتراثه الاجتماعي، وهي ذات أهداف محددة وطرائق ووسائل وأشكال محددة من قبل المجتمع ، وهي كذلك لأنها تشتمل على مجموعة أجهزة ، أو بلغة أدق تنظيمات مختلفة، رسمية وغير رسمية، تكوّن في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه المؤسسة التربوية مثل : الأسرة والمدرسة ، وأجهزة الإعلام، والحي.

* والتربية « منتج » ، فقولنا إن شخصا ما .. متعلم ، أو أتم تربية معينة، فمعنى ذلك أن هذا الشخص قد اكتسب قدراً معينًا من المعارف والمهارات والثقافة (قيم وعادات وطموحات ونماذج سلوكية) حسب مقدار ونوع التربية التي حصل عليها.

والتربية كمنتج إما أن تكون تربية عامة أو تربية متخصصة. والتربية العامة بمعنى ذلك القدر من المعارف والمهارات والثقافة الذي يعد الفرد للمواطنة، ولفظ « عامة » يعني معارف وثقافة غير متخصصة. أما التربية المتخصصة فتعني حصول الفرد على نوع من المعارف والثقافة يؤهله للقيام بعمل معين في الصناعة أو الزراعة، أو أي من النواحي الفنية في المجتمع حيث أن الإعداد للمواطنة يتطلب إكساب الفرد تربية عامة، والإعداد للعمل المتخصص في الحياة يتطلب إكساب الفرد تربية خاصة.

* والتربية « علم » لأنها تمثل جسما من المعرفة المتخصصة، والمناهج الخاصة للبحث والتجريب، فالتربية في جوانبها الثلاثة السابقة هي موضوعات للدراسة والبحث العلمي المنظم، وهي مجالات للحصول على

معارف وقوانين ونظريات في التربية .[٢٣]

ويختتم الكتّاب السابقون فكرهم عن التربية بقولهم « وثمة علوم تربوية مختلفة، كل منها يتخذ من أحد الجوانب التربوية موضوعًا للبحث والدراسة بهدف اكتشاف القوانين والنظريات التي تفسر وتحلل أبعاد العمل التربوي في جوانبه المختلفة ، فهناك علوم أصول التربية « تاريخ التربية، واجتماعيات التربية، وفلسفة التربية، والتربية المقارنة، تعليم الكبار) ، وهناك علوم المناهج وطرق التدريس، وهناك علوم الإدارة التربوية، وهناك علم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وغيرها من العلوم التي تتخذ من التربية كنشاط عملي (!!) حقلاً وموضوعًا للبحث والدراسة.[٢٤]

التربية الإسلامية :

وهنا يأخذنا الشيخ « محمد قطب » ، حفظه الله، إلى نوع بعينه من «التربية».. هي «التربية الإسلامية» التي هي « منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة.. يشمل النفس الإنسانية كلها بحذافيرها، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل.. منهج فريد في كل مناهج الأرض ، وإن التقى ببعضها في التفصيلات والفروع، فريد في شموله ويقظته لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية، وكل خالجة ، وكل فكرة، وكل شعور. وفريد في اثره في داخل النفس وفي وقائع الحياة، فقد كان من أثره تلك الأمة العجيبة في التاريخ.

الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء، والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض، تفتح وتغزو، تعمر وتبني، تقيم مُثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد.

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ص ١٦-١٧.

(٢٤) المرجع السابق.

هذه الأمة كلها من نتاج هذا المنهج ـ منهج التربية الإسلامية ـ كلها، بمادياتها ومعنوياتها ، بمشاعرها وأفكارها ، وسلوكها وأعمالها ، أمة فريدة في التاريخ [٢٥] ويؤكد الكاتب الإسلامي الحصيف على تفرد منهج التربية الإسلامية وتميزه على بقية مناهج التربية البشرية الأخرى التي اهتم بعضها بالجوانب المادية وأغرق فيها على حساب الجوانب الروحية ، والبعض فعل عكس ذلك تمامًا، ولذا جاءت تربيتهم ناقصة أو منتقصة ، عكس التربية الإسلامية، وعكس منهجها القويم الذي أنزل على قلب النبي ﷺ من فوق سبع سماوات، يقول الشيخ محمد قطب .. بعد استعراض سمات التربيات البشرية الناقصة :

« ومن بخس الإنسان لقدر نفسه أن يجهل طاقاته أو يهدر بعضها لحساب بعض، فهو يستطيع دائمًا أن يكون نفسه كلها، وأن يعمل بطاقاته جميعا في واقع الحياة. يستطيع أن يكون الإنسان العابد لله، المستمد من هداه، ويكون الإنسان المفكر المتعرف على أسرار الكون وقوانينه، ويكون الإنسان العامل بجهده الحيوي لترقية الحياة وتنميتها، ولن يعطله جانب من هذه الجوانب ـ حين يسير على المنهج السوي ـ أن يشبع الجوانب الأخرى ، أن يستفيد منها إلى غايتها، فهكذا خلقه الله قادراً على هذا النشاط المتعدد ، محققا لكيانه في الاتجاهات كلها، وبهذه الطاقات المتعددة ذاتها منحه الخلافة في هذه الحياة.

بل الأمر أبعد من ذلك ، فهو حين يستغل طاقاته كلها يكون أجود إنتاجًا، وأوفر حصيلة ، فهذا المخلوق البشري كالنبع الثر، يفيض بقدر ما تتفتح منه العيون، كلما فتحت عين جديدة تدفق المجموع، وهذا واقع الحياة الإسلامية الأولى هو الشاهد على تلك الظاهرة البشرية الفذة، فقد نشطت في كل اتجاه.. في العلم والعمل والفتح والتنظيم والتشييد، فكان علماؤها هم العلماء، وقادتها هم القادة، ونظامها هو النظام، وحضارتها هي الحضارة ولم تشعر أن نشاطها

---

(٢٥) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول) ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ص ٩-١٠.

المادي يمنعها من عبادة الله والاستمداد من هديه، ولا أن عبادة الله تمنعها من الضرب في مناكب الأرض ولا عمارتها ، ولا أن هذا وذاك يمنعانها من التفكير العلمي التجريبي، بل كانت هذه الجماعة ـ كما يقول «جب» وغيره من المستشرقين ـ هي التي أدخلت الطريقة التجريبية في البحث العلمي .[٢٦]

وحين يجنح الإنسان بطاقة من طاقاته على حساب بقية الطاقات، فذلك اختلال في باطن النفس ينتج عنه اختلال في واقع الحياة ، حين يجنح بطاقته الحيوية فيسعى الى المتاع الزائد عن الحد، أو يجنح بطاقته العقلية فيعيش في برج عاجي بعيداً عن واقع الحياة، أو يجنح بطاقته الروحية فيهوّم في سبحات روحية سلبية لا تتحول إلى عمل وإنتاج في عالم الحس، فلن يكون سعيداً وهو فرد ، لأنه يظل يظلع في مشيته وتختل مواقع أقدامه ـ لأن الثقل يقع عليها بغير توازن ـ ولن يكون سعيداً وهو مجموع، فلا يمكن أن تستقيم حياة جماعة كل همها المتاع الحيواني، وقد انهارت فرنسا حين وصلت إلى هذا المدى من المتاع، ولا جماعة يشتغل مفكروها بالفلسفة المنقطعة عن واقع الأرض ، وقد تعرضت أوروبا لأعنف الاضطرابات في القرنين الأخيرين، وانتهت إلى الشيوعية في نهاية المطاف، وكرد فعل للفلسفة المثالية التي كانت تحلق في أفكارها النظرية الخاوية وتترك جموع البشر يأكلهم الجوع والحرمان والمذلة المهينة لكرامة البشرية، ولا جماعة تعيش في تهويمة الروح السالبة، وقد كانت الهند والصين ترزحان تحت وطأة التأخر والانكماش والضياع حتى بدأتا تتخلصان أخيراً من هذه التهويمة السالبة وتعيشان واقع الحياة.

لذلك يحرص الإسلام على التوازن ، ويجعله هدفًا أساسيًا في منهاجه، ويبذل فيه كل ما في الطاقة من جهد ، يبدأ فيه مع الطفل من مولده ، ويسير فيه مع الإنسان في جميع مراحل نموه، ولا يتركه في لحظة واحدة دون معاونة أو توجيه وطريقته هي التوقيع على أوتار النفس كلها، مجتمعة مترابطة في آن

(٢٦) المرجع السابق.

واحد حيث يؤدي ذلك إلى التوازن المنشود حين تتخذ له الوسائل الصحيحة التي يرسمها منهج الإسلام.[٢٧]

وأخيراً ..

فإنه يمكننا القول بأن ما يقول به الشيخ « محمد قطب » هو التعبير الحقيقي عن روح التربية الإسلامية الحقيقية التي بدأها الرسول ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، يوم أخذ يربي صحابته الكرام على هدي القرآن الكريم، في مكة المكرمة، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أول مدرسة فعلية في الإسلام، بغض النظر عما يقوله بعض من يؤرخون للتربية الإسلامية ، أو لتاريخ التربية في الإسلام قائلين إنها بدأت في القرن الرابع الهجري، ويستشهدون على ذلك ببناء أول مدرسة في ذلك القرن.

والواقع أننا لو تبعناهم في ذلك فإننا نكون من الذين يؤرخون للمباني والمنشآت ، وليس للتربية ذاتها ولا لمخرجاتها من الرجال العظام ـ صحابة رسول الله ﷺ ـ أولئك الذين غيروا وجه الدنيا بعد أن غيرتهم تربية الرسول ﷺ ، من داخلهم ، فخرج منهم المجاهدون في سبيل الله الذين أذلوا الكفار والمشركين ومهدوا الطريق للإسلام كي ينساح في بلاد العالم المعروفة آنذاك، كما تخرج منهم العلماء الأفذاذ في كل مجال من مجالات العلوم المختلفة ، سواء كانت علومًا شرعية أو علومًا دنيوية فتحوا فيها آفاقًا بالاجتهاد ما طرقها أحد قبلهم، فأرسوا بذلك أسس الحضارة الإسلامية الرائعة التي سادت العالم قرونا طويلة من الزمان و واعترف بها وبفضلها الأعداء قبل الأصدقاء، كما تخرج منها آلاف وآلاف من المسلمين العاملين الذين كدوا وتعبوا وعرقوا في كل مجال من مجالات العمل عرفته البشرية، من الزراعة إلى الصناعة، ومن التجارة إلى التعدين، بحيث اكتفى مجتمعهم المسلم بحاجاته كلها في مأكل وملبس ومشرب،

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٩.

سداً لحاجاته، واعتزازاً بجهد أبنائه، وتلك غاية من غايات التربية في المجتمعات الحديثة لا تتهاون فيها ولا تتنازل عنها، وقد حققها أجدادنا المسلمون العظام منذ قيام دولة الإسلام لأول مرة في المدينة المنورة على هدي الرسول ﷺ.(*)

هذه هي التربية التي ربى الرسول ﷺ أصحابه عليها، فكانوا هم الذين أرسوا دعائم الحضارة الإسلامية التي نعتز بها إلى يومنا هذا ، ولكن إذا كانت صورة العالم الإسلامي الآن ليست على ما يرام ، ولا على الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه فإن الخطأ هنا ليس في تربية الإسلام ولكنها في المسلمين أنفسهم الذين بعدوا عن الإسلام وعن روحه وعن تطبيقه ، ومن هنا أصبحوا يتطلعون إلى ما عند غيرهم، وأصبحت أمثلتهم يضربونها من شعوب ومجتمعات غيرهم، يرون فيها المثل والنموذج الذي ينبغي أن يقتدي به وأن يحتذى ، وصرنا نتحدث عن اليابان وعن التربية في اليابان، وعن أمريكا وعن التربية في أمريكا .. إلخ، ونسينا أن النبع الصافي عندنا ، وأننا لا يمكن أن نتقدم بالاستيراد، أو عن طريق الاستيراد، حيث أن التربية عملية مجتمعية بالدرجة الأولى، ومعنى ذلك أن تربية مجتمع لا تصلح لمجتمع آخر، وعسى أن يهدينا الله إلى الحق فنعود إلى الطريق السليم والوحيد ، وهو طريق الإسلام وتربية الإسلام.

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة في هذا الموضوع مراجعة الكتابين الآتيين:

١- عبدالعزيز محمد العمري: الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول ﷺ .

٢- أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، در العلم، الكويت، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.